الفصل العاشر

• قد يكون لدى الكثيرين الإجابة عن هذا السؤال: إذا كان صحيحا أن حسن البنا رشح جمال عبد الناصر ليكون المرشد العام للإخوان المسلمين، فكيف يوافق عبد الناصر على إعدام المفكر الشيخ سيد قطب؟!

obeikan.com

obeikan.com

الإخوان المسلمون.. وتحديث لغة الخطاب السياسى

أصدر مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية لصحيفة الأهرام مطبوعة يصف فيها أوضاع «الإخوان المسلمين» فى مصر، واعتبرت المطبوعة أنهم يمثلون إحدى الحركات السياسية الاجتماعية ذات البرنامج الإسلامى، كما نوهت المطبوعة إلى أن جماعة الإخوان (حركة سلمية ساعية للحكم).

وتكشف الأدبيات السياسية أن أعضاءالجماعة – منذ التأسيس فى عشرينات القرن المنصرم – كانت مهتمة بإقامة الدولة الدينية، ولا أحد من الأعضاء كان يخفى أهداف وطموح الجماعة فى الحصول على سلطة الحكم، عملاً بقوة العقيدة والايمان بقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٦٥]، ولأجل وجه الله الكريم صارت أحكام القرآن هى الركن الأساسى للحكم، وأن النكوص عن ذلك يعد مروقاً وجريمة لا يغتفرها الله لأحد:

«وأن قعود المسلمين المصلحين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية».(١)

إنطلاقاً من هذا المعتقد أخذت «الدعوة» تنتشر بين صفوف الطلبة والعمال حيث نهضت على أكتاف المجموعة الواحدة المكونة من خمسة أفراد «شعبة»، وكل مجموعة بهذا العدد لا تعرف تشكيلات المجموعة الأخرى ولا أسماء أفرادها، فالجميع يعملون كمظلة أو خلية تصب كل اهتمامها فى إقامة الصلاة والانطواء على تطهير الروح بالتربية الدينية ذات الأصول السلفية، والتى كان ميراثها مصدراً للنهضة فى الفكر الإسلامى.

من ذلك التراث السلفى، تنوعت حديثاً ثمار شجرة الفكر الإسلامى

(١) حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام الشهيد، دار القرآن، بيروت ١٩٧٤ ص ٢٧٢.

بمساهمة وأفكار الإمام الشيخ محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، إلى جمعية العلماء فى الجزائر (ومن ظافر الفارسى فى دمشق إلى الشيخ ابن عاشور فى تونس، وعلال الفارسى فى المغرب) .

كانت الدعوة تمضى فى ثياب الورع والتقشف وتأسيس أجيال تنهض بأعباء الإسلام والمسلمين، ولم يعلن الإخوان المسلمون عن العداء – بشكل سافر – ضد أى قوة اجتماعية تختلف معهم نظرياً ومن حيث التطبيق العملى إلا فى مستهل الخمسينات من القرن الماضى حيث أيدت الجماعة بشكل صارم موقف رجال ثورة ٢٣ يوليو من الديموقراطية المزعومة فجاء موقفهم تأييداً للحكومة المعادية للحياة الحزبيةوالتعددية السياسية .

فى صراحة ووضوح أعلن المرشد العام عن الخط السياسى لجماعة الإخوان المسلمين :

« أعتقد أن الحياة الحزبية والسياسية، وإن جازت فى بعض البلدان فهى لا تجوز فى كلها، وهى لا تجوز فى مصر أبدا » .(٢)

عبر المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين فى شفافية عن اعتقاد المسلمين البسطاء، ومن يعرفون حقيقة الدين، بعيداً عن من ينتسبون للإسلام اسماً وينقلون عن الغرب شكلاً ومضموناً ما لا يفيد سوى أهل الغرب .

وقيل فيما يحكى عن الشيخ حسن البنا أنه عندما شعر بالخطر يحدق به بعد قرار حل جماعة الإخوان المسلمين فى ٨ / ١٢ / ١٩٤٨، أنه :

« أعد وصية وذهب بها ليسلمها إلى صالح حرب باشا فى جمعية الشبان المسلمين فى الليلة التى قتل فيها، وهى الليلة الوحيدة التى خرج فيها من بيته

(٢) حسن البنا : من رسالة ألقيت فى مؤتمر الإخوان سنة ١٩٣٥ . دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٣٢ .

منذ أن أحس بأنه مستهدف من الملك وأعوانه.

وقد كتب البنا موصياً بأن يكون المسئول عن جماعة الإخوان المسلمين فى حالة اغتياله أو غيابه هو عبد الرحمن السندى رئيس الجهاز الخاص «التنظيم السرى» للإخوان المسلمين، وإذا لم يكن السندى موجوداً يصبح جمال عبد الناصر حسين هو المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين».(٣)

لا نقلل من شأن الوصية المذكورة، وإذ لم يشر إليها صالح حرب باشا فى كتاباته ولا بين أوراقه فأين هى الآن؟

إن إسناد الصفات والمهام على شخص ما دونما إثبات بسند أو وثيقة يعد من قبيل الزعم الباطل، ولا يحسن النظر إليه، والمؤكد أن عبد الناصر كان واثقاً من عدم قدرة تنظيم الإخوان المسلمين للقيام بعملية التغيير وحدهم، وأنه لا سبيل أمامهم للإسراع بحركة التغيير إلا بالتلاحم مع الحركات السرية الأخرى داخل صفوف الجيش: «فالمهمة أثقل من أن يتحملها تنظيم واحد، وهى أكبر من قدرة أى تنظيم على حدة».

ويقال أن جمال عبد الناصر عندما ذكر هذا الكلام أمام عبد المنعم رؤوف أحد ضباط الإخوان المسلمين فى الجيش المصرى، اعترض قائلاً: إنه لا يمكن أن يضع يده إلا فى أيد «متوضئة» وأنه أقسم يمين الولاء للعمل على المصحف، وأنه لا يمكن الوصول إلى الغايةالنبيلة إلا بالوسيلة النبيلة، وبالتالى فإنه لن يضع يده فى أيدى الشيوعيين وغيرهم ممن لا ينتمون إلى الإخوان المسلمين.

وعلى طريقة التغيير. كانت هناك أصوات أخرى تنادى بتحديث المجتمعات غير الغربية للتمدن، وارتفعت شعارات الفردية، على اعتبار أنها تظل العلامة

(٣) سليماد الحكيم (عبد الناصر والإخوان بين الوفاق والشقاق) مكتبة جزيرة الورد ط أولى ٢٠١٠ ص١٤ و١٥.

المميزة للغرب بين حضارات القرن العشرين، وهى أيضاً تشكل جزءاً من الجوهر الأساسى للحضارة الغربية.

من هذه المنطلقات الفكرية، يلتقى العلمانيون المصريون مع تلك الأفكار (التى ساعدت الغرب للأخذ بزمام القيادة فى تحديث ذاته والعالم).

تبعاً لهذا المنطق، تبنى بعضهم هذه الأفكار، وباتوا يروجون – لكى تتقدم بلادنا – بأن ننقل عن هؤلاء، غير مكترثين بما لدينا من تراث معرفى، ودون أن نأخذ بشئ من ديننا.

انبعثت من هذه الأركان الخلاف الفكرى والأيديولوچى بين جماعة الإخوان المسلمين وبين العلمانيين واليساريين، ومن ليس منهم على دين، ثم تفاقمت المشاكل بينهم وبين أعضاء مجلس قيادة ثورة يوليو ١٩٥٢، فقرروا قتل عبد الناصر عن طريق «الجهاز السرى» الذى يرأسه عبد الرحمن السندى دون إذن من الهضيبى المرشد العام.

«أطلق «هنداوى دوير» النار على عبد الناصر يؤكد د، إبراهيم ناجح الرجل الثانى فى جماعة الإخوان المسلمين فى مقال نشر له على الموقع الرسمى للجماعة:

إن الإخوان قصدوا قتل عبد الناصر، وإن حادثة المنشية كان محاولة حقيقية بالفعل لقتله، وإن بعض من أفراد النظام الخاص وهو الجناح العسكرى للإخوان، قام بذلك فعلا، ولكنهم لم يستأذنوا فى ذلك المرشد العام حسن الهضيبى الذى كان يكره العنف، وكان على خلاف مع أجنحة كثيرة فى النظام الخاص.

وأوضح الدكتور ناجح بأن الدولة الإسلامية تختلف عن الإسلام نفسه فالإسلام معصوم، ولكنها غير معصومة مشيراً إلى أن الدول الإسلامية والحركات قد تخطئ فى العمل بالمرجعية الإسلامية لهوى شخصى، أو طلب دنيا، أو السعى وراء الجاه أو السلطة.

وفى ومضة سريعة، وضع النقط فوق الحروف ليوضح أن قضية الخلاف بين الجماعة وعبد الناصر، هو اعتقاد كل منهما أنه الأجدر بالسلطة وحكم البلاد، لأنهم كانوا أصحاب فكرة الثورة، وأنه «لم يكن الخلاف أساساً على الدين أو الإسلام أو حرية الدعوة، لكن فى ظن كل فريق منهما أنه الأجدر بالحكم».

هذه البذور الضاربة فى أعماق فكرالإخوان المسلمين منذ أن كان المرشد العام حسن البنا يفكر فى مطلع أربعينات القرن الماضى فى دعم المرجعية الإسلامية فى مصر وغيرها من دول العالم العربى والإسلامى إيذاناً بمولد الوحدة العربية الإسلامية الكبرى، كما رأى أن هذا الصرح فى حاجة إلى تضحيات جسام ونشاط مكثف، يُفعِّل حركة الجماهير الكبيرة فى الشارع المصرى، وفى مواجهة سلطة ليس لها من شاغل سوى الأخذ بتلابيب الجماهير وتضليلها عن جادة الطريق المستقيم.

لقد شاءت ردود الأفعال أن تسفر عن ملامح المقاومة من طرف الجناح العسكرى وحاولت على قدر ما وسعها أن تعبرعن إرادتها، وأنها لن تضعف ولن تهن حتى ترتفع راية الإسلام، فكان الاصطدام الحتمى بالنظام الناصرى عام ١٩٥٤.

خاض الإخوان المسلمون أولى معاركهم، وهم يستشرفون آمال المستقبل بقلوب عامرة بالإيمان، وكانوا يطالعون خريطة العالم الذى قسمه الاستعمار، وينظرون إلى الماضى القريب فى غضب، ويتأملون.. من العار أن يظل العالم منشطراً أو مقسماً لصالح عدد من الدول الغربية.

ففى عام ١٩١٩، إبان اشتعال الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول باشا، جلس «وودرو ويلسون»، و«لويد جورج»، و«جورج كليمنصو» وراحوا يقسمون العالم بينهم، وتم ذلك على أرض فرنسا صاحبة «الثورة الفرنسية» التى أوهمت البسطاء بأنها ترفع راية: العدالة.. المساواة.. إلخ.

من على أرض باريس، قرروا من هى الدول التى وجدت لتعيش، ومن هى الدول التى ولدت لتموت، (وما هى مواصفات الدول التى سيتم خلقها(*))،ومن سيحكمها؟.. وكيف سيقسم الشرق الأوسط بين الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى؟

حدث ذلك فى عام ١٩١٩، قبيل نشأة جماعة الإخوان المسلمين، وحينما أرهصت بمولدها كانت آخر خلافة إسلامية فى التاريخ ذبلت أوراق شجرتها على أرض تركيا، وانكمش الإسلام على أيدى العلمانيين الذين بادروا بخلع العمائم عن رؤوسهم وأغرقوها فى القبعات، وانسحبت القوات التركية فى جنوب فرنسا، والمجر، وبلغاريا، وأرمينيا، ودول البلقان، لتعيش تركيا الإسلامية فى إنكماش وراء ضفاف الأناضول.

فتح أعضاء جماعة الإخوان المسلمين عيونهم على هذا الواقع المحلى والدولى فأخذت تنشط فى بداية العشرينات من القرن الماضى على أيدى من اكتسبتهم لصفوفها من العمال، والفلاحين، والطلبة، وأصحاب الدكاكين الصغيرة، وكان هم الجماعة الأول مُنْصَباً على شحذ قدرات الشباب دينياً وعلمياً، والعودة للموروث من أجل المساهمة فى عملية التحديث، إذ لا داعى البتة لإستعمال أردية لا تليق بنا، وسحب الأغطية الفكرية والسياسية المستوردة على رؤوس الوطن.

هذه الاستجابة الرافضة لمصير السياسة البغيضة المنسحبة على وجه الغرب سيكون من شأنها – بحكم الأوضاع الفاسدة – أن تدفع الحركات الجهادية إلى مهاجمة النظام، ثم بدأت بذور تكفير المجتمعات المسلمة تنمو وتشب فى ستينات القرن الماضى، وقد ذاق فيه أعضاء جماعة الإخوان المسلمين – على

(*) صدور وعد بلفور عام ١٩١٧ بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وجاء كخطوة تمهيدية يفتح بها الباب لما تلاه من قرارات ضد الإنسانية، صدرت عن رؤساء العالم الغربى من أجل صياغة عالم جديد. «المؤلف»

يدى النظام الناصرى وفى عهد مبارك – صنوف العذاب داخل سجن مصر الحربى وليمان طره، والواحات.

« تؤكد الكتابات فى علم الاجتماع المعرفى على أن النظريات والمذاهب والأفكار لا تنشأ من فراغ، ولا يمكن فهمها فهماً صحيحاً إلا بمعرفة المناخ الفكرى والسياسى الذى ساد قبل وأثناء ظهورها ».

البعض ممن خرجوا من غياهب السجون، انسحبوا هامشياً على اعتبار أن المجتمع أصبح وطناً كافراً، ثم بدأت تخرج من عباءة الإخوان المسلمين أطياف وتيارات وجماعات جهادية شبابية، منها ما ظهر بقيادة الدكتور صالح سرية مؤسس تنظيم الفنية العسكرية سنة ١٩٧٤، ومحمد عبد السلام فرج مؤسس تنظيم الجهاد.

وبدأت القيود المفروضة على المجتمع تعيق المضى فى حرية، وتصيب بالأذى حركة الأفراد سواء من كان منهم منتظماً فى حركات الجهاد أو الجماعات الإسلامية، وأن يحقق قانون الطوارئ انتصاراً فى تصويره أن هؤلاء « بعبع الإرهاب » وأن المجتمع برىء منهم، لدرجة أنهم باتوا يعتقدون أنهم يحافظون على نظام الدولة بتطويق المجتمع بأسره، حفاظاً على أمنه واستقراره!!

يترهل هذا المنطق فى لبس ثوب الغباء، ويثير الحنق والاستياء فى نفوس المواطنين العاديين، خاصة وأن التدقيق الجدلى لمسار هذه التجربة يثبت فشل الممارسة لما فيها من قهر وعدوان صارخ على الحريات.

ويعود الجميع بالذاكرة إلى ما كان يفكر فيه حسن البنا فى مطلع الأربعينات من القرن الماضى، متخذاً سبيلاً لدعم المرجعية الإسلامية فى مصر وغيرها، إيذاناً بمولد الوحدة العربية الإسلامية الكبرى، كما أن هذا الصرح فى حاجة إلى تضحيات جسام، ونشاط مكثف يُفعِّل حركة الجماهير العريضة فى الشارع

المصرى، وفى مواجهة سلطة ليس لها من شاغل سوى القبض على رقاب العباد، ودفعهم إلى الخنوع والطاعة العمياء.

من تلك التراكمات صارت ردود الأفعال تتبلور فى أشكال من ملامح المقاومة من طرف الجماعات الإسلامية حتى قطعت شوطاً طويلاً من التكفير إلى العنف خلال سنوات ١٩٦٦ – ١٩٩٥، بينما كانت الدولة لا تهتم إلا بتكوير قبضة العنف والاستبداد، والحيلولة دون طموح المواطنين الذين لم يثبت إدانتهم، ولم ينضموا يوماً فى صفوف أية جماعة معادية.

ومن المعروف كقاعدة بيولوچية أن الأعضاء المنعزلين، أو تلك الفئات التى تُضرب من حولها الأسيجة والاستحكامات، سرعان ما تصاب أفكارهم بنوع من الاختلال المنطقى والجسدى، وعلى سطح ذلك الجسد الاجتماعى المصاب بالتقيحات الفكرية، تنتشر الأفكار المهيضة الجناح، كنوع طبيعى من بكتريا المجتمعات الاستبدادية.

فى تلك التربة تنتشر حمى الفيروسات الفكرية، بكل عنفوان الشراسة، بحيث لا يعلم أحد عما إذا كان المستقبل يدخر للوطن نوعاً جديداً من تلك العقاقير المعيقة ومن مكونات قانون الطوارئ، أم أن فعلا مشرقاً سوف يتفتق عن وجه الظلام الذى جثم على صدر مصر لعدة عقود؟

●●●●●●